## أفكار متقاطعة

### «يوتوبيا» متسامية نظريّاً لا تنزل إلى أرض الواقع (9)

# أفكار جديدة للاجتماع البشريّ كي لا ينتهي التاريخ إلى كارثة وانهيار

■ جورج كعدي

نكمل مع إتش.جي.ويلز وعالمه «اليوتوبيّ»، فبعد «يوتوبيا حديثة» وضع مؤلّفه المشهور أيضاً «بشر مثل الآلهة» وتقوم «يوتوبيا» أيضاً في كوكب آخر شبيه بكوكبنا وعالم توأم لعالمنا وإن يكن متقدّماً عليه قليلاً من الناحية الزمنيّة، وهو على عكس «يوتوبيا حديثة» خالٍ تماماً من حكومة مركزيّة «وليس فيه. يقول ويلز. مجلس أو مكتب يُصدر القرار الأخير في حالات العمل الجماعيّ الموجّه إلى المصلحة العامّة، ولا سيادة فيه ولا سلطة نهائيّة، ولا تركيز للسلطة. وُجد ذلك كلّه في الماضي، لكنّه انصهر منذ وقت طويل في الجسد العام للمجتمع. الشعب هو الذي يتّخذ القرارات في أيّ شأن من الشؤون الخاصّة، فهو الأعلم بحقيقته. ولا قوانين بالصورة التي نعرفها، ولا سلطة لتوضع موضع التنفيذ. وإذا رفض أيّ شخص الالتزام بالتعليمات الخاصّة بالصحّة العامّة مثلاً، لن يُفرض عليه تنفيذها، وإذا أجري تحقيق معه عن سبب عدم التزامه بها فقد يجد المحقّقون عذراً استثنائيّاً، وإذا لم يتوصّلوا إلى شيء يمكن إجراء فحص لقواه العقليّة ولحاله الصحّية والأخلاقيّة».

يرى ويلز أنّ هذا المجتمع «اليوتوبيّ» يتحقّق بفضل التغيير الحاصل في تفكير الناس: «بدأ عدد متزايد يدرك أن المفهوم القديم للحياة الاجتماعيّة في الدولة، كصراع محدّد ومشروع بين الرجل والمرأة كي يحصل كلّ منهما على أفضل ما لدى الآخر، أضحى في ظلّ الطاقات الجبّارة التي أطلقها العلم والتنظيم ووضعاها في متناول الإنسان أخطر من أن يُحتمل، مثل الرعب المتفاقم من الأسلحة الحديثة الذي جعل السيادة المستقلّة للأمم أخطر من أن تحتمل. وكان ضرورياً أن تنشأ أفكار جديدة وتقاليد جديدة للاجتماع البشري كي لا ينتهي التاريخ إلى الكارثة والانهيار. وكانت فكرة التنافس على الملكيّة، بكونها الفكرة المتحكّمة في التعامل بين الناس، أشبه بفرن أسيء التحكّم فيه فبات يهدّد بإتلاف الآلة التي دفعها في البداية إلى الحركة، لذا حتّمت الظروف أن تحلّ مكانها فكرة العمل المبدع، كما أمسى ضرورياً أن يوجّه العقل والإدارة نحو هذه الفكرة إذا أريد إنقاذ الحياة الاجتماعية. فضلاً عن أنّ الاقتراحات التي بدت في العصور السابقة نوعاً من المثاليّة المتحمّسة بدأت تلقى اعترافاً بها، لا كمجرّد حقائق نفسيّة متّزنة، بل كحقائق عمليّة وضروريّة بشكل ملحّ».

كان التنظيم الاجتماعيّ لـ«يوتوبيا حديثة» كشف عن ارتياب ويلز في «الطبيعة البشريّة»، بيد أنّنا نراه في «بشر مثل الآلهة» يدين قمع الغرائز الحيوانيّة والشهوات، قائلاً: «طوّرت يوتوبيا في بطء التجانس الراهن بين القانون والتعليم. لم يبق الإنسان معوّقاً ولا مكرهاً على شيء، واعترف بأنّه حيوان في المقام الأوّل، وبأنّ حياته اليوميّة ينبغي أن تشبع الشهوات وتلبّي حاجة الغرائز. وحيك النسيج اليومي للحياة اليوتوبيّة من مأكولات ومشروبات متنوّعة ولذيذة، ومن تمارين وأعمال حرّة ومسلّية، ومن نوم عذب وشغف وسعادة بالعشق المتحرّر من الخوف والإرغام. هبط الكفّ والكبح إلى حدّهما الأدنى. أمّا التعليم في يوتوبيا فبدأت قوّته تظهر بعدما أُشبع الحيوان الغريزيّ ولبّيت مطالبه. والواقع أنّ «الجوهرة» التي تزيّن رأس الأفعى، والتي أخرجت يوتوبيا من فوضى الحياة البشريّة، كانت هي حبّ الاستطلاع والدافع إلى اللعب الذي تطوّر لدى البالغين حتّى غدا جوعاً للمعرفة لا يشبع ورغبة في الإبداع مستمرّة وملحّة. هكذا أضحى جميع سكان يوتوبيا مثل الأطفال الصغار الذين لا يتوقّفون عن التعليم والإنجاز». لم يبق هدف التعليم غرس الانضباط والطاعة في نفس الطفل، بل «إشباع دوافعه الطبيعيّة للعب والتعليم، ومراقبة نموّ خياله المطرد وتشجيعه، بحيث يُقبل على العمل الذي يجذبه، ويختار العمل الذي يمتعه».

لا يعني ذلك السماح لجميع الغرائز بسلوك مسارها الطبيعيّ، فويلز يوظّف ما يطلق عليه المحلّلون النفسيّون تعبير «التسامي» توظيفاً حرّاً: «إنّ انفعالات الطفل الجنسيّة تحوّل في الاتجاه المضادّ لأنانيّته، ويُستثمر حبّ استطلاعه في الشغف بالبحث العلميّ، ويوجّه ميله إلى العراك نحو محاربة الفوضى، كما يُوجّه طموحه وكبرياؤه إلى المشاركة المشرّفة في الإنجاز الجماعيّ لأجل المصلحة العامّة»... (يتبع).

### ارتبط اسمه بالإيقاع الغربيّ الحديث في سورية عزفاً وتأليفاً وتدريساً

# سيمون مريش: إنّي ضدّ تسمية «الفن الهابط» فإمّا يكون فنّاً أو لا يكون

كتبت سلوى صالح من دمشق ـ (سانا): ارتبط اسم الموسيقي السوري سيمون مريش بعزف الإيقاع الغربي على مختلف آلاته، ليتربع على عرش هذا الفن، الحديث في سورية نسبياً، فيبدع في مجالات العزف والتأليف والتدريب وفي إنشاء الفرق الموسيقية الشابة والتدريس في المعهد العالي للموسيقى والعزف مع أبرز الفرق الموسيقية السورية والعربية والاجنبية داخل سورية وخارجها، فضلا عن خبرته في تصنيع الآلات الموسيقية الإيقاعية.

لم يكن يتوقع مريش أن يصل يوماً إلى ما وصل إليه، رغم أحلامه الكبيرة وغير المحدودة التي يغذيها بجرعة عالية من المحبة لمزاولة الموسيقى التي يعتبرها ممتعة كمهنة وهواية. ويقول إن الموسيقى تنطوي على نعمة تتمثل في تقديم السعادة للآخرين، فالقدرات التقنية والروحية للعازف تجعل منه شخصاً قادراً على إيصال إحساس معين للجمهور، سواء بآلة معقدة مثل البيانو أو بآلة بسيطة مثل المجوز أو الربابة. وعن الاختلاف بين العزف على آلات الإيقاع وغيرها من الآلات الموسيقية يوضح أن الآلات الإيقاعية وأبجديتها بسيطة، كما أن التعلم عليها لا يحتاج الى مهارات، لكن احترافها يتطلب جهداً وإخلاصاً وتفانياً لإبلاغ حالة شعورية عالية، وهي آلات محببة جداً لدى الأطفال والمتلقين، فالإيقاع بعد متكامل في الموسيقى بين اللحن والأصوات المرافقة وركيزة أساسية تضاف إليها الكلمة في الأغنية أو الارتجال في الجاز.

يرى مريش أن أهمية الإيقاع في الموسقى توازي أهمية خفقان قلب الإنسان الذي يعتبر دليلاً على الحياة، مشيراً الى أن التنوع في الآلات الإيقاعية مبهر جداً، وهي لا تعد ولا تحصى فالإيقاع هو مفهوم أكثر منه آلة، الى حد أنه يمكننا صنع آلة إيقاعية من أي أداة.

لكن هل يقتصر عزف الإيقاع على الرجال دون النساء؟ يجيب مريش أن ثمة مفهوماً خاطئاً حول أن الآلة الإيقاعية تحتاج الى جهد عضلي. قد يكون هذا صحيحاً قليلاً ما يفسر إقبال الشبّان على عزف الإيقاع أكثر من الشابات. لكن ذلك لا يمنع وجود آلات إيقاعية ذات صوت أنثوي مثل الأجراس الصغيرة والمثلث.

يؤيد مريش التصنيف بين موسيقى شرقية وأخرى غربية، فحاجة الإنسان تدفعه إلى تفضيل موسيقى على أخرى بحسب مزاجه، لكن يفترض بالإنسان المتوازن أن يعطي ميزة حقيقية للفن الجاد حتى لو لم يحبه.

يعرّف مريش الموسيقى المعاصرة بأنها موسيقى اللحظة، بغض النظر عما إذا كانت ذات طابع كلاسيكي أو شرقي أو نمط «فيوجن» أي المزج والدمج بين نمطين كالهندي والجاز مثلاً باستخدام عناصر من الجهتين مع احتمال الفشل والنجاح في هذا الدمج.

إلى فرقته «بيركومانيا» التي أنشأها عام 2008، شارك عازف الإيقاع مريش في إنشاء عدة فرق موسيقية سورية، وكان عضواً أساسياً من فرق كثيرة مثل «زرياب وماري» والأوركسترا السيمفونية الوطنية وجميع فرق الأوركسترا التي عزفت خارج سورية، كما شكل أول رباعي للجاز في سورية ويضم إليه كلاً من باسل رجوب ونارك عبجيان وخالد عمران، وهو عضو أساسي في فرقة «كلنا سوا» وفرقة «مرمر» وفرقة «حوار» ويعمل راهناً مع مجموعة «زركشة» التي تضم عازفين من خريجي المعهد العالي للموسيقى إذ يتم التحضير لعمل يتوقع له النجاح مع يزن صباغ وجورج مالك وفجر عبدالله وعفيف دهبر. وألف مجموعة مقطوعات لفرقة «بيركومانيا» التي تضم مجموعة من خريجي قسم الإيقاع في المعهد العالي للموسيقى في دمشق، وعمل حديثاً في الموسيقى التصويرية لمسرحية «هوب هوب» للمخرج عجاج سليم. وهو راض عن تجربته الفنية عامة، ومقتنع بكل ما يقدمه، ويبقى الحكم الأخير للناس المتوازنين فهم يقوّمون التجربة، مشيرا إلى أن لتجربته عدة مناح، فهو مدرّس وعازف ومؤلف ومدرّب للصغار والكبار ويدرّب الأطفال في إحدى روضات دمشق على برنامج موسيقي مخصص لهم ويعلمهم الصولفيج والآلات الموسيقية التي تناسب أعمارهم والأغاني التي كتبها لهم، كما يلقنهم الإفادة من المواد المهملة في ورش عمل لإعادة التدوير مثل علبة لبنة فارغة يمكن أن يحولها الأطفال الى طبلة صغيرة مثلاً، أو غيتار، بغية تعليم الطفل تصنيع شيء جميل يحتفظ به فيكون تصنيعه بمثابة علاج نفسي للخروج من الأزمة التي يعيشها الوطن.

عن تجربته مدرّساً في المعهد العالي للموسيقى والتي تعود إلى 14 سنة خلت، يقول إنه يحب هذه المهنة التي تقوم على انتقال المعرفة من شخص إلى آخر، كما يشعر بالسعادة حين يرى طلابه على المسارح يقدمون أعمالاً مميزة، قائلاً: «أنا فخور بأني جزء من بنائهم موسيقياً».

حول أهمية الموسيقى في الظروف الراهنة يوضح أن ثمة من ينظر إلى الموسيقى في ظل الأزمة على أنها عمل ترفيهي وليست حاجة أساسية، ربما لأنها لا تدر دخلاً ومن هنا نشأت إشكالية لدى البعض متناسين أن الموسيقى هي حاجة روحية، معتبراً أن الموسيقى المؤطرة دار الأوبرا تحت عنوان ثقافي تجلب مردوداً مادياً مناسباً في ظل ارتفاع الأسعار، إضافة إلى أن الموسيقيّ في حاجة إلى مصروف مضاعف، ما يدفع العازفين إلى السفر إلى الخارج، فمبلغ 15 ألف ليرة لقاء حفل ما بعد تدريب لمدة شهر لا يكفي لتغيير أوتار الآلة التي يعزف عليها الفنان. ويلفت إلى أن المعهد العالي للموسيقى أفرز للمجتمع عازفين ذوي تقنية عالية وجدوا فرصتهم في دول الجوار إذ يعزفون مع أسماء كبيرة مثل زياد الرحباني وجوليا بطرس وهم يحصّلون بذلك دخلاً ملائماً.

على الصعيد الرسمي تدعو دار الأوبرا الفرق الشبابية إلى المشاركة في الحراك الموسيقي، وثمة خريجون يعزفون في الأوركسترا العربية أو الكورال أو ممن لديهم مشاريع شخصية فردية، خماسي أو رباعي، يقدمون أعمالهم في المسارح المتاحة، لكن الوضع المادي المتردي يدفعهم نحو الأسهل والأقل جودة، فتقديم موسيقى جادة وراقية يحتاج الى فترات تحضير وجهد عال لإيصال العمل الفني إلى مرتبة تتناسب مع مسرح الأوبرا.

الفنان سيمون مريش خبير أيضاً في تصليح الآلات دغاخل مشغل ملحق بمنزله وكثيرا ما يستشيرونه في ضبط دوزان الآلات الإيقاعية، وقد يبتكر أحياناً آلة إيقاعية تتناسب مع المقطوعة التي يؤديها لتقديم أصوات غير عادية كعلاقة ثياب علقت عليها مفاتيح مثلاً.

والعمل الذي يعتز به الفنان مريش ويشعر بأنه يمثله ويحرص على تقديمه دوماً مع فرقته هو «حول العالم في ثمانين إيقاعاً» وفكرة العمل عبارة عن رحلة تبدأ من البرازيل مع إيقاعات السامبا، ثم إلى كوبا وموسيقى السالسا، إلى المغرب ومصر في أفريقيا، فالعراق وفلسطين في الهلال الخصيب، لتنتهي هذه الرحلة في سورية وتؤديها فرقته «باركومانيا» بمجموعة من الارتجالات ولهذه المقطوعة في نفسه مكانة خاصة لكونه جمع فيها كلّ ما تعلمه خلال دراسته وإطلاعه على موسيقى الشعوب.

حول دور الإعلام في إبراز الفرق الموسيقية الشابة والإضاءة على نشاطاتها، يعرب عن أسفه لكون الإعلام يسوق أحياناً للمادة الفنية سهلة التسويق، مشيرا إلى خطورة الذهاب نحو الأعمال الهابطة بداعي التسويق. ويعتبر أن مشكلة العازفين الذين يقدمون أعمالاً متميزة هي أنهم لا يملكون خبرة في تسويق العمل الفني والإعلان الكافي عنه، ما يستدعي تعاون الطرفين الفني والإعلامي.

هل ثمة موسيقى سورية؟ يلفت مريش إلى وجود بصمة سورية خارج حدود البلاد لكنها فردية ومتبلورة بجهود فردية أكثر منها بأنماط معروفة، ويطالب الدولة بتبني المشاريع الموسيقية الجادة، ليس من الناحية المادية فحسب بل بالترويج الإعلامي أيضا وبتكريس تلك النشاطات على القنوات الفضائية والترويج لمن يقدمون مادة موسيقية دسمة وحالة فنية راقية وفن ملتزم، حتى لو كانت طقطوقة، على ألا تخدش الأخلاق. أما أن يتم التركيز على أغان ليس فيها جهد أو مسروقة من ألحان فهذا غير مقبول. وهو ضد تسمية الفن بأنه هابط، فالفن إما يكون فناً أو لا يكون، وهذا لا يمنع وجود محاولات متواضعة لا تزال في بداياتها على قناتي «سورية دراما» و«تلاقي» بتقديم اضاءات على موسيقيين وفرق موسيقية، لكن هذا لا يكفي.

ينصح مريش للموسيقيين الشبّان بأن يمزجوا حبهم للموسيقى بالتفاني في مزاولتها، سواء في التأليف أو العزف، مشدداً على أهمية التحصيل العلمي في الموسيقى، إضافة إلى درجة محبة الفنان لما يقدمه وتطوير موهبته لبلوغ مرتبة فكرية وفنية أعلى دائماً وأن يقدم عمله إلى الناس بغض النظر عن النقد الذي يمكن أن يلقاه، وألا يحبطه ذلك وألاّ يتقولب، فإذا كان يملك الموهبة والشغف والقناعة فإنه يصل إلى مبتغاه بالتأكيد.

## الخبر الثقافي

### غييرمو مارتينيث يفوز بجائزة ماركيز للقصّة القصيرة

قبل رحيل الكاتب الكولومبي الشهير غبريال غارثيا ماركيز في نيسان الفائت، كان هناك تفكير في التأسيس لجائزة تحمل اسمه، وأن تكون الجائزة في القصة القصيرة تحديداً، ليس لأنه من أشهر المجددين فيها فحسب، بل أيضاً لإهمال هذا النوع الأدبي من جانب الكُتّاب ودور النشر وسوق القراءة. وعقب رحيله، لم يمر شهر حتى أعلن عن الجائزة وشروطها والجهات التي تمولها وقيمتها التي وصلت إلى 100 ألف دولار تمنح لكاتب قصة موهوب كي يتمكن من التفرغ بعد ذلك للكتابة. وبعد الإعلان عن القائمة القصيرة التي ضمت خمسة كتّاب، أعلنت الجائزة في بوغوتا، كولومبيا، فوز الكاتب الأرجنتيني غييرمو مارتينيث عن مجموعته «سعادة منفّرة» التي تضم 11 قصة يتراوح حجمها بين صفحتين إلى خمسين صفحة، وصدرت سابقاً لدى دار «بلانيتا»، بحضور ممثلين عن وزارة الثقافة الكولومبية والمكتبة الوطنية ومعهد ثربانتس في إسبانيا، وهي الجهات المموّلة كما حضرت، كما حضرت عائلة ماركيز.

غييرمو مارتينيث (مواليد بائيا بلانكا، 1962) دكتور في علم الرياضيات، لكنه متفرغ تماماً للأدب، واختير من بين 123 عنواناً مقدماً ومنشوراً في إسبانيا وأميركا اللاتينية. والعمل الفائز، بحسب لجنة التحكيم، يتناول الخط الواهن الذي يفصل الجنون عن الرصانة، المصادفة عن الإتفاق، الحلم عن الكابوس»، وتضيف: «كذلك يقدم التوحد في مقابل الصلابة والتوازن، كميزة في نثره، ما يجعله متمكناً من الفن الذي يقدمه».

أضافت لجنة التحكيم أن المجموعة القصصية «تعكس أيضاً نظرة خاصة في العبث والرعب والفانتازيا والغرابة انطلاقاً من اليوميّ ومعالجة ذلك بأستاذية مطلقة».

تعتبر الجائزة إحدى الوسائل التي شاءت بها كولومبيا تكريم كاتبها الكبير ماركيز، وقالت مديرة المكتبة الوطنية كونسويلو غايتان أثناء الحفل:«القصة الآن تتمتع بجائزة تليق بها».

بالإضافة إلى الفائز، ضمت القائمة القصيرة التي أعلنت منها قبل نحو شهر أربعة أسماء أخرى: الأرجنتينية كارولينا بروك في مجموعتها «الأخريات»، والمكسيكي إكتور مانخاريث ومجموعته «بالأمس نمت في الجبل»، والإسباني أوسكار سيبان ومؤلفه «آه لو أن لي صوت ليونارد كوهين لأطلب منك أن ترحلي»، والكاتب التشيلي أليخاندرو ثامبرا ومجموعته «ملفاتي».

ولدى تسلمه الجائزة قال مارتينيث إن القصة كنوع أدبي مطرود قليلاً من عالم النشر، لكنه واثق من أن مبادرات مثل هذه الجائزة ستدعم وجودهما. وتذكر أباه المتوفى قائلاً: «كان يعتقد أن الأدب لا يمكن أن يفي بمتطلبات الحياة، رغم أنه من ألهمني وألهم إخوتي حب الأدب».

ويضيف لصحيفة «البايس» الإسبانية «إن قصص الكتاب كُتبت على مدار عشر سنوات، والعامل المشترك فيها التشويق. إنها قصص مما هو يومي، لكن ذات لحظة تتحوّل إلى شيء قريب من الشر، الكابوس، الجنون، ومن أن شيئاً فظيعاً سيقع. إحدى القصص تتناول اليوم الأخير في حياة تروتسكي، وأخرى عن أم لتوفر لابنها كامل الحماية تربيه بعيداً عن النور. أما حجم القصص فيختلف، وإن كانت أكبر قصة تعتبر نوفيلا، إذ تصل إلى 50 صفحة، ويختتم بها الكتاب».

يكتب مارتينيث منذ كان في الرابعة عشرة، وله مجموعتان قصصيتان، «الجحيم الكبير» و«سعادة منفرة»، وروايات «بالقرب من رودرير» «زوجة الأستاذ» «جرائم غير مدركة» «موت لوثيانا البطيء» و«أنا أيضاً كان لي خطيبة بايسكشوال»، بالإضافة إلى كتاب بحثي عنوانه «بورخس والرياضيات».

فاز مارتينيث سابقاً بجائزة بلانيتا في الرواية، وبجائزة الصندوق الوطني للفنون في الأرجنتين، ويُعتبر من أكثر كُتّاب جيله ترجمةً إلى اللغات الأخرى. وبالإضافة إلى الكتابة، يدير ورشة كتابة إبداعية في الجامعة الوطنية ترس دي فبريرو.

ترأست لجنة تحكيم الجائزة الكاتبة الإسبانية كريستينا فرناندث كوباس، والأعضاء: الكاتب ورسام الكاريكاتور والصحافي الكولومبي أنطونيو كابايرو، والسلفادوري أوراثيو كاستيانوس مويا، والأرجنتيني ميمبو جارديتيللي، والمكسيكي إغناثيو باديا.

# هاروكي موراكامي: أؤمن بقوّة القصص

نشرت صحيفة «غارديان» البريطانية، الكلمة التي ألقاها الكاتب والمترجم الياباني هاروكي موراكامي في حفل تسلّمه جائزة دي فيلت للأدب، واستهل موراكامي كلمته بالقول: «ربع قرن مضى الآن على سقوط سور برلين الذي كان يفصل برلين الشرقية عن الغربية. كانت زيارتي الأولى لها سنة 1983، وكانت المدينة لم تزل مقسمة إلى شرقية وغربية بالسور الهائل. كان في وسع الزوار أن يذهبوا إلى برلين الشرقية، ولكنهم كانوا يمرّون بعدد من نقاط التفتيش، على أن يعودوا إلى برلين الغربية قبل أن تعلن دقات الساعة منتصف الليل، تماماً شأن سندريلا في الحفلة. «ذهبت مع زوجتي وأحد الأصدقاء لحضور عرض الناي السحري لموتسارت في أوبرا برلين الشرقية. كان العرض والجو رائعين، لكن الفصول أخذت تتالى، ومضت الساعة تقترب من منتصف الليل، وأتذكر كيف سارعنا في طريق العودة لنعبر نقطة تفتيش تشارلي، فأدركناها في الوقت المناسب تماماً، لكنه كان موقفاً بالغ الصعوبة، ويبقى ذلك العرض من بين مختلف عروض الناي السحري التي حضرتها الأكثر إثارة.

عندما سقط سور برلين عام 1989 أتذكر أنني تنفست الصعداء وحدّثت نفسي قائلاً: ها هي الحرب الباردة انتهت، وإنني على يقين من أن عالماً مسالماً إيجابياً في انتظارنا، وأحسب أن كثيرين في مختلف أنحاء العالم شعروا بمثل ذلك، لكن إحساس الارتياح لم يطل كثيراً، إذ ظل الشرق الأوسط غارقاً في النزاع، ونشبت حرب البلقان، وتتابعت الهجمات الإرهابية واحدة تلو الأخرى، ثم وقع بالطبع الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك سنة 2001، وانهارت آمالنا في عالم أسعد فلم يبق منها ما يكاد يُرى».

أردف الروائي البارز قائلاً «لطالما كانت الأسوار عنصراً مهما بالنسبة إليّ كروائي، ففي روايتي «أرض العجائب ونهاية العالم» رسمت مدينة خيالية يحوطها سور شاهق، فهي مدينة من المدن التي لا تكاد تدخلها حتى يستحيل عليك الخروج. وفي روايتي «حوليات الطائر الزبركي» يجلس البطل أسفل سور (...) الأسوار بالنسبة إليّ رمز لما يفصل الناس عن الناس، لما يفصل منظومة قيم عن أخرى. وقد تكون لنا في السور حماية أحياناً، لكنّ في حمايته لنا إقصاء حتميّاً للآخرين، وذلك منطق الأسوار. يتحوّل السور في نهاية المطاف إلى نظام ثابت يرفض منطق أي نظام مغاير، وأحياناً يكون رفضه عنيفاً. لا شك في أن سور برلين كان مثالاً صارخاً على ذلك، وأحياناً يبدو لي أننا لا نهدم سوراً إلا لنقيم آخر. قد يكون سوراً حقيقياً ذلك الذي نقيمه، أو خفياً يُحدق بعقولنا. ومن الأسوار ما ينهانا عن التقدم إلى أبعد مما نحن فيه. والأسوار تنهى الآخرين عن المجيء إلينا. وقد ينهار في نهاية المطاف سور، فيتغيّر العالم ونتنفس الصعداء، ليبهتنا أن سوراً آخر انتصب في مكان آخر من العالم، سوراً من العِرْق، أو الدين، سوراً من التعصب، من الأصولية، سوراً من الجشع، سوراً من الخوف، فهل ترانا عاجزين عن العيش من دون نظام الأسوار؟. الأسوار لنا نحن الروائيين عقبات علينا أن نذللها، هي هكذا لا أكثر ولا أقل. بكتابتنا الروايات نعبر الأسوار مجازاً. نعبر الأسوار الفاصلة بين الواقع واللاواقع، بين الوعي واللاوعي. نرى العالم القائم في الجهة الأخرى من السور، ونرجع إلى جهتنا نحن فنصف حتى أدق التفاصيل إذ نكتب ما شهدناه، ولا نصدر حكماً على معنى السور، أو على فضائل الدور الذي يلعبه ورذائله، إنما نحاول أن نرسم بدقة المشهد الذي رأيناه، وذلك عمل الروائيين الذي يمارسونه من يوم ليوم. حينما يقرأ شخص الأدب القصصي ويتأثر به، قد يعبر هو الآخر ذلك السور برفقة الكاتب. وبالطبع، يغلق ذلك الشخص الكتاب فإذا به في المكان نفسه الذي بدأ منه القراءة، فإن انتقل منه فلا يكون ذلك إلا لسنتيمترات عشرة أو عشرين على أقصى تقدير، وإذ الواقع المحيط بنا لم يتغيّر، ولم تنته مشاكله الفعلية إلى حلول، ومع ذلك يبقى لدى القارئ ذاك الإحساس الفارق بأنه عبر السور، فكان في مكان آخر ورجع منه، وإذا به الآن ينتابه شعور بأنه انتقل من النقطة التي بدأ منها، ولو لمسافة ضئيلة. ولطالما اعتقدت أن المرور بخبرة ذاك الشعور الحسي هي أهم ما في القراءة كلها. ذاك الشعور الفعلي بأنك حر، وبأنك قادر إذا أردت على اجتياز الأسوار والذهاب إلى حيثما تشاء. أكتب أكثر ما أستطيع من القصص التي تجعل ذلك الأمر ممكناً، وأشرك في هذه النوعيات من القصص أكبر عدد يتسنى لي من البشر».

يضيف موراكامي: «بديهي أن حل المشاكل التي تواجه عالمنا اليوم لا يتمثل في ذلك النوع من الوعي المشترك، فليس للروايات، لسوء الحظ، هذا النوع من الأثر الفوري. وإننا قادرون بالقصة على أن نتخيّل بوضوح عالماً مغايراً للذي نعيش فيه، ومواجهة الواقع المعتم العنيف الساخر الذي نحياه. قد يبدو ذلك في أحياناً رجاء عابراً، عديم الحيلة، لكن القدرة التي يملكها كل فرد على التخيل موجودة في هذا على وجه التحديد، في الجهد الهادئ، والمستديم، الرامي إلى مواصلة الغناء، وحكي القصص، دونما يأس. في عالم الأسوار قد يفضي بنا تخيّل عالم بلا أسوار ورؤيته في وضوح بعين الخيال إلى أن نراه ماثلاً أمام أعيننا في الواقع، وإن في أحيان معينة وإنني لأودّ أن أبقى على إيماني بأن للقصص هذه القوة».

# ندوة إسبانيّة حول كتاب عن أوكتافيو باث: التاريخ كابوس لا يمكن التخلّص منه

استضاف المعهد الثقافي المكسيكي في مدريد المؤرخ والباحث كريستوفر دومينغيث الذي قدّم كتابه الجديد عن أوكتافيو باث، قائلاً إنه أوّل سيرة ذاتية شاملة عن الشاعر المكسيكي.

إنغمر أوكتافيو باث في خضم حياة المكسيك، موطنه الأصلي. بكى لمآسيه، وتمتع برقصاته، وناضل لأجل تغييره. مجسّداً في نثره روح بلده وتأريخه وتنوعه. ولا تزال أشعار الشاعر الذي يحمل نوبل الآداب لعام 1990، وتبحث بعد مرور مئة عام على ولادته، في معاناة المكسيكيين. وكانت صدرت مجموعة كبيرة من الكتب التي تتحدث عنه وعن أعماله، لكن في ما يخص حياته الأكثر حميمية، لم يكن ظهر منها حتى الآن سوى الشائعات.

غير أن السيرة الذاتية «أوكتافيو باث في مئويته» التي قدّمها المؤرخ والباحث كريستوفر دومينغيث مايكل (مدينة مكسيكو، 1962)، الأسبوع الفائت في المعهد المكسيكي في مدريد، في كتاب عن باث، تعتبر في رأيه البيوغرافيا الأشمل والأعمق عن الشاعر المكسيكي. وعلى ما يوضح مؤلف الكتاب، فإن مردّ هذا التأخير في ظهور سيرة باث يعود إلى تشتت أرشيف حياته غير المنظم. ولإكمال عمله أجرى دومينغيث مع العديد من المتخصصين عشرات اللقاءات مع أصدقاء وزملاء الشاعر المكسيكي من الكتّاب المكسيكيين، ومع أرملة الشاعر ماريا خوسيه تراميني ويصف الحديث معها بأنه «كان مقتضباً جداً، لكن غنياً جداً بالمعلومات». ورغم لقاءاته العديدة بشخصيات مقربة جداً من أوكتافيو باث منحته فرصة الإلمام بأدق تفاصيل حياة هذا الشاعر الفذ، إلاّ أن دومينغيث لم يحظ بلقاء مع إبنة باث الوحيدة إيلينا باث غارّو، إذ كانت توفت عن عمر 74 عاماً في 30 آذار الفائت، عشية الذكرى المئوية لميلاد والدها، معلقاً على ذلك « ولكن لحسن الحظ أنها تركت مذكراتها التي تعتبر غاية في الأهمية».

يتحدث دومينغيث في كتابه عن العلاقة العاصفة بين باث وزوجته الأولى، إيلينا غارّو، والقطيعة مع ابنته، وولعه بالرسم الذي يتعارض ولامبالاته بالموسيقى، وكذلك مسيرته السياسية، ومساعيه التي لم تتحقق لأجل الحوار مع اليسار المكسيكي، وزواجه الثاني، وأفكاره الماركسية والليبرالية، وبالتأكيد أعمال الشاعر الأدبية.

يؤكد مؤلف الكتاب كريستوفر دومينغيث، الذي عمل في مجلة «فويلتا» التي كان أصدرها أوكتافيو باث عام 1976 على «أن ثمة قطبين في أشعار باث العظيمة: التأريخ بمثابة كابوس لا يمكن التخلّص منه، والإثارة الجنسية كخلاص وحيد من جحيم هذا التأريخ. وبينهما يكمن الشعر الذي يمثل محاولة للإيقاع بالحاضر».

لنحو عشر سنوات كان دومينغيث حاضراً في الاجتماعات التي كان يديرها مؤلف «متاهة العزلة»، إذ يقول: «كنت أقوم بترويض عقلي للاحتفاظ بأجزاء كاملة مما كان يقوله، ومن ثم نقله إلى دفتر يومياتي لدى وصولي إلى بيتي». وكانت علاقة العمل هذه من الأسباب التي أدّت بمؤلف الكتاب إلى البحث والإستعلام وسرد حياة مديره السابق. ويقول دومينغيث الذي يصف باث بالرجل الطيب والسخي: «كتابة السيرة كانت ديناً في عنقي عليّ أن أرده. حالفني الحظ عندما كنت في السادسة والعشرين بأن أكون ضمن هيئة تحرير تلك المجلة، وأن أجتمع به، على الأقل، مرّة واحدة شهرياً».

من المتوقع أن يصدر الكتاب في 29 تشرين الثاني الجاري ضمن المعرض الدولي للكتاب في غوادالاخارا في المكسيك. وتمت ترجمته أيضاً إلى الفرنسية، ويأمل المؤلف في أن يترجم إلى الإنكليزية. وليس لدى دومينغيث شك في ظهور كتب أخرى تبحث في سيرة باث الذاتية على نحو توثيقي أفضل، غير أن كتابه، بحسب تعبيره هو أول محاولة متكاملة تروي حياة الشاعر المكسيكي بإسهاب و«ليست المحاولة الأخيرة والوحيدة، لكنها أول سيرة ذاتية شاملة كتبت عن الشاعر حتى الآن».